المحاضرة الرابعة: النقد التاريخي في عصر النهضة وعصر التنوير

أولاً: النقد التاريخي في عصر النهضة (القرن 14–16)

شهدت أوروبا خلال عصر النهضة عودة قوية إلى التراث الكلاسيكي اليوناني والروماني، مع ازدياد الاهتمام بالإنسان والعقل والبحث العلمي. هذا الانبعاث الثقافي دفع العلماء إلى مراجعة التراث التاريخي نقديًا بدل الاكتفاء بالتقليد.

سمات النقد التاريخي في عصر النهضة الأوروبية

1. **التركيز على النصّ الأصلي وإعادة تأريخ المصادر:** عرف عصر النهضة الاروبية نهضة نسخ النصوص الكلاسيكية دفعت الباحثين لإعادة فحص المصادر القديمة، ومقارنة نسخها وتحديد القراءات الأصلية. وفيها رفع مفكروها ومؤرخوها شعار "العودة إلى الينابيع" (Ad fontes)، في دعوة صريحة إلى تجاوز الشروح التي طبعت العصور الوسطى والرجوع إلى النصوص اليونانية واللاتينية الأصلية، والوثائق الأولى، بما فيها المخطوطات القديمة وتصحيح ما شابها من تحريف عبر الزمن والاهتمام بفحص النسخ ومقارنة النصوص. وقد جاء هذا التوجّه نتيجة وعي متزايد بانتشار التحريف والأخطاء في النصوص المتداولة خلال العصور الوسطى. وهنا بدأت تتبلور ملامح النقد النصي (Textual Criticism) بوصفه أداة علمية لفحص النصوص التاريخية.
2. **نشوء منهج نقدي أولي للوثائق:** بدلا من قبول المصادر تلقائيا، بدأ المؤرخ أو الباحث يسأل عن سلسلة الانتقال (سند الوثيقة)، وتاريخها، ومرجعيتها، وهو ما يشير الى نواة النقد الظاهري والباطني، والذي تطور الى النقد اللغوي والفيلولوجي، ونعني بالفيلولوجيا علم يُعنى بدراسة اللغة، الأسلوب، تطور الألفاظ، والبنية النحوية والدلالية للنصوص. وبذلك هو علم دراسة النصوص القديمة، واستخدمت الكلمة في اللغة الانجليزية ابتداء من القرن 14م بمعنى دراسة التراث القديم وقد تحدد مجال علم الفيلولوجيا بمعناه الدقيق بتحقيق المخطوطات واعدادها للنشر العلمي وفك رموز الكتابات القديمة وكل ما يتعلق بتقديم النصوص والنقوش القديمة على نحو يمكن من القيام بابحاث متخصصه فيها.

اعتمد المؤرخون على مقارنة لغة النص بالمستوى اللغوي المعروف في عصره المفترض، وبنصوص أخرى موثوقة تاريخيًا. وفي هذا الصدد قام إيرازموس Erasmus (1469–1536) الفيلسوف الهولندي بإعادة تحقيق نص العهد الجديد اعتمادًا على النسخ اليونانية، وبيّن أخطاء الترجمة اللاتينية، ما كشف أثر التحريف النصي في نقل الوقائع الدينية والتاريخية. ويمكن اجمال النقد اللغوي والفيلولوجي الى سمتين اساسيتين:

_دراسة اللغة والأسلوب للكشف عن أصالة النصوص وتحديد زمنها.

_تبلور علم الفيلولوجيا لتدقيق الروايات التاريخية. وقد تحول في عصر النهضة من علم لغوي إلى أداة نقد تاريخي.

3. **التأثير الإنساني** أو النزعة الإنسانية (Humanism)

النزعة الإنسانية في عصر النهضة ليست إنكارًا للدين، بل إعادة مركزية الإنسان، والإعلاء من شأن العقل والخبرة البشرية، والتأكيد على قدرة الإنسان على صناعة التاريخ. وقد رفض الإنسانيون تفسير التاريخ على أنه تجلٍّ للإرادة الإلهية فقط، وأكّدوا على دور الفرد، والقرارات السياسية، المصالح الاقتصادية والاجتماعية.

وبذلك انتقل المؤرخون من التاريخ الكنسي وسِيَر القديسين، إلى التاريخ السياسي، والتاريخ الثقافي، والسير الذاتية للقادة والمفكرين.

ويمكن حصر النزعة الانسانية في سمتين اساسيتين:

_التأكيد على دور الإنسان في صناعة التاريخ.

_دراسة التاريخ السياسي والثقافي بدل التاريخ الكنسي وحده.

4. **بداية التخصص المنهجي:** تبلور وعيٍ بأن دراسة الماضي تتطلب أدوات خاصة (تصنيف المصادر، نقد النص، مقارنة الشهادات)، وهو ما وضع قواعد أساسية للتأريخ النقدي اللاحق فقد شهد عصر النهضة الأوروبية بداية تشكل التخصص المنهجي في دراسة التاريخ والعلوم الإنسانية، بعد أن ظلت المعرفة في العصور الوسطى ذات طابع موسوعي عام. فقد أدى الاهتمام المتزايد بالتراث الكلاسيكي الإغريقي والروماني إلى ظهور فئة من العلماء المتخصصين في فروع بعينها، مثل فيلولوجيا النصوص، ونقد المخطوطات، ودراسة النقوش، والوثائق القانونية والكنسية. ولم يعد الباحث يكتفي بثقافة عامة أو رواية شاملة للأحداث، بل أصبح يمتلك أدوات منهجية دقيقة تمكّنه من التعامل مع نوع محدّد من المصادر وفق قواعد واضحة. وأسهم المنهج الإنساني (Humanism) في ترسيخ هذا التحوّل، حيث ركّز على إتقان اللغات القديمة، ومقارنة النسخ، وتحليل الألفاظ والسياقات التاريخية، وهو ما مهّد لظهور تخصّصات فرعية مثل النقد النصي، والدبلوماطيقا، وعلم المخطوطات .وبذلك شكّل عصر النهضة خطوة حاسمة نحو الانتقال من المعرفة العامة إلى البحث المنهجي المتخصّص، الأمر الذي أرسى الأسس الأولى لقيام العلوم التاريخية الحديثة في العصور اللاحقة.

5. **التحول من السرد الأسطوري إلى الملاحظة التاريخية** ميل إلى الرجوع إلى الأدلة الملموسة (نقوش، مخطوطات، نصوص أصلية) ورفض التفسيرات التقليدية غير المدعومة بمصادر

أبرز رواد النقد التاريخي في عصر النهضة

_ من المؤرخين الذين تاثرت الدراسات التاريخيه الاوروبيه بهم طيله القرن 16 بتوجهاتهم واهتماماتهم نذكر منهم ليوناردو بروني Leanardo Bruni (1396–1444) عرف بكتابه تاريخ فلورنس Storia Florentina في إثني عشر مجلدا والذي عبر فيه عن تطلعات مثقفي في عصره فتعرض للدور الاشخاص ومكانتهم بموضوعيه وواقعيه وحاول تفسير احداث التاريخ من خلال نظره تحليليه نقديه

_جوزيف جوست سكاليجر Joseph Jiste Scaliger 1540 1609 احتل مكان مرموقة بين مؤرخي فرنسا في عصر النهضة رغم مذهبه البروتستانتي واصله الايطالي عرف سكاليجر بانتقاله الدائم بين اقطار اوروبا فاشتهر امره بمدينة جنيف واختتم حياته العلمية بالتدريس في جامعة لندن وقد اعتبر اول من عمل على تحديد قواعد علمية لتصحيح النصوص القديمة وعد في طليعة مؤرخي فرنسا بعد ان ضبط جداول دقيقة بالتوافق الزمني بينما سجله اوزي بيوس القيصري 256 340 ميلادي في مدونته "التاريخ الكنسي" وبين ما هو مسجل في التاريخ الروماني فاعاد الاعتبار بذلك لتاريخ الشرق القديم

_ لورينزو فالا Lorenzo Valla أبرز أعماله نقد "تبرئة قسطنطين" أو هبة قسطنطين *Donation of Constantine* – يقصد بها ذلك الجهد المنهجي الذي كشف زيف إحدى أشهر الوثائق السياسية الدينية في أوروبا خلال العصور الوسطى، ويعد مثالا مبكرا وحاسما على النقد التاريخي النصي في عصر النهضة. تعود الوثيقة إلى نص ادعى أن الإمبراطور قسطنطين الكبير (القرن الرابع الميلادي) منح البابا سيلفستر الأول سلطة دينية وزمنية واسعة على روما والغرب المسيحي، وقد استخدمت قرونا طويلة لتبرير النفوذ السياسي للبابوية. غير أن الإنساني الإيطالي لورينزو فالا قام سنة 1440م بنقدها نقدا علميا دقيقا، معتمدا على المنهج الفيلولوجي بدل الاحتكام إلى السلطة أو التقليد.

_ نيقولا مكيافيللي Niccolò Machiavelli (ت 1527م)، اشتهر باعتماده التحليل الواقعي والسياسي في مقاربته للتاريخ، إذ تعامل مع الوقائع التاريخية بوصفها نتاجا لصراعات القوة والمصلحة، لا تعبيرا عن إرادة أخلاقية أو قدرية. ففي كتابه المطارحات حول ليفي (Discorsi sopra la prima deca di Tito Livio)، لم يكتفِ بسرد أحداث التاريخ الروماني، بل سعى إلى استخلاص القوانين السياسية التي تحكم نشوء الدول واستمرارها وسقوطها، مركزا على دور السلطة، والعصبية المدنية، وطبيعة البشر في الصراع على الحكم، وهو ما جعله أحد أوائل من أسسوا لقراءة تاريخية تفسيرية قائمة على السببية السياسية .وبهذا أسهم في نقل التاريخ من مجال العبرة الأخلاقية إلى مجال التحليل السياسي الواقعي، ممهدا الطريق لتطور الفكر التاريخي الحديث.

_ غيوم بوديه Guillaume Budé، (ت 1540م) اشتهر بإسهاماته البارزة في الدراسات الفيلولوجية وتدقيق الوثائق، ويعد من أعلام النزعة الإنسانية في فرنسا خلال عصر النهضة. فقد ركز في أعماله، ولاسيما كتابه "شروح في اللغة اليونانية"، على التحليل اللغوي الدقيق للنصوص اليونانية واللاتينية، معتمدا على مقارنة الألفاظ ودراسة تطور المصطلحات في سياقاتها التاريخية. ولم يكن اهتمامه باللغة غاية في ذاته، بل أداة لفهم النصوص القانونية والتاريخية وفحص مدى أصالتها ودقتها، الأمر الذي أسهم في ترسيخ منهج نقدي يقوم على التحقق من تاريخ الوثيقة، ولغتها، ومرجعيتها .وبذلك مثلت أعمال بوديه خطوة متقدمة في تأسيس قواعد النقد النصي والوثائقي التي ستتطور لاحقا في عصر التنوير.

ثانيًا: النقد التاريخي في عصر التنوير (القرن 17–18)

يعد **عصر التنوير** مرحلة مفصلية في تطوّر الفكر التاريخي الغربي، إذ شهد انتقالا نوعيا من السرد التقليدي القائم على النقل والتلقّي إلى **الممارسة النقدية العقلانية** التي جعلت من التاريخ علما قائما على التحليل والتحقيق. فقد ارتبط النقد التاريخي في هذا العصر بروح التنوير التي رفعت من شأن **العقل والتجربة والشك المنهجي**، وناهضت الخرافة، والأسطورة، والسلطة غير المبررة، سواء كانت دينية أو سياسية.

وقد أسهمت التحولات الفكرية الكبرى، كالثورة العلمية، وتقدم الفلسفة العقلانية، وانتشار الطباعة، في ترسيخ منهج نقدي جديد للمصادر التاريخية، يقوم على **فحص الوثائق، والتحقق من أصالتها، ومساءلة الروايات التقليدية** بدل التسليم بها. ولم يعد المؤرخ مجرد ناقل للأحداث، بل غدا باحثا يسعى إلى تفسير الوقائع وربطها بسياقاتها الاجتماعية والسياسية والفكرية.

كما تميّز النقد التاريخي في عصر التنوير بالتحرر النسبي من الهيمنة اللاهوتية على كتابة التاريخ، وبمحاولة **إخضاع الماضي لقوانين العقل والتفسير السببي**، وهو ما تجلى في أعمال مفكرين ومؤرخين بارزين مثل **بيير بايل، وفولتير، ومونتسكيو، وديفيد هيوم**، الذين أسهموا في تطوير أدوات نقد الروايات، ونقد المعجزات، وتحليل نشأة المؤسسات والتقاليد.

وعليه، فإن النقد التاريخي في عصر التنوير يمثل حلقة أساسية في تشكل **المنهج التاريخي الحديث**، ومقدمة ضرورية لظهور المدرسة الوضعية في القرن التاسع عشر، حيث أُرسيَت أسس التعامل العلمي مع النصوص والمصادر، وتم الانتقال من تاريخ يكتب للتبرير والتمجيد إلى تاريخ يكتب للفهم والتفسير.

سمات النقد التاريخي في التنوير

1) العقلانية والمنهج الفلسفي: تفسير الأحداث بأسباب اجتماعية وسياسية واقتصادية، لا بمعجزات أو خرافات.
2) التشكيك المنهجي في الروايات: إخضاع الأخبار لمعايير الدقة والتثبت قبل قبولها.
3) الاهتمام بالوثائق والأرشيفات: ظهور فكرة "الحقيقة الوثائقية" كأساس للمعرفة التاريخية.
4) التاريخ العام للحضارات: الانتقال من تاريخ الملوك والحروب إلى تاريخ المجتمع والثقافة والاقتصاد.
5) تطور النقد الخارجي والداخلي: التحقق من أصالة الوثيقة وشكلها (خارجي) وتحليل مضمونها ومعقوليتها (داخلي)

أبرز رموز التنوير في الكتابة التاريخية

_ فولتير Voltaire (ت 1778م)، يعد من أبرز مفكري عصر التنوير الذين أسهموا في إعادة تعريف وظيفة التاريخ، إذ أسس لما عرف لاحقا بـ "التاريخ الثقافي" بدل الاقتصار على التاريخ السياسي أو الكنسي. فقد انتقد بشدة الكتابة التاريخية الدينية التي ركزت على المعجزات وسِيَر القديسين وتبرير السلطة الكنسية، معتبرا إياها تاريخا منحازا يفتقر إلى العقلانية والنقد. وفي أعماله، مثل *مقال في أخلاق الأمم وروحها Essai* (*sur les mœurs et l'esprit des nations*، دعا إلى كتابة تاريخ يهتم بـ الأفكار، والعادات، والتقاليد، والعلوم، والفنون، ويربط الأحداث بالسياقات الاجتماعية والثقافية التي أنتجتها. وقد مثل هذا التحول قطيعة مع التاريخ اللاهوتي، وأسهم في إخضاع الماضي لمعيار العقل والتفسير السببي، مما جعل فولتير أحد الرواد المؤسسين للمنهج التاريخي الحديث ذي البعد الثقافي النقدي.مونتسكيومن اسهاماته منهج تفسير التاريخ بالعوامل الجغرافية والقانونية

_ إدوارد جيبون Edward Gibbon (1737–1794م)، اشتهر بعمله الضخم "تاريخ انهيار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها" (*The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*)، الذي يعد نموذجا رائدا لـ المنهج النقدي التاريخي الصارم في عصر التنوير. فقد اعتمد جيبون على مصادر متنوعة بعناية شديدة، وقام بمقارنة الروايات، وفحص صحة الوثائق، وتمييز الحقائق من الأساطير والخرافات، بدل قبولها تلقائيًا. كما ركز على التحليل السببي لأسباب الانهيار، بما في ذلك العوامل السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والدينية، وانتقد دور الكنيسة في تحريف بعض الوقائع التاريخية. وبذلك مثل عمل جيبون مرحلة متقدمة في تطبيق النقد الظاهري والباطني على المصادر التاريخية، وأرسى أسس ما أصبح يعرف بالمنهج التاريخي الحديث القائم على التحقيق العلمي، والموضوعية، والربط السببي للأحداث.